# الاحتجاج في شعر أبي تمام

أ.م.د. ثائر سمير حسن الشمري
جامعة بابل /كلية التربية الأساسية

**المقدمة:**

يعدّ الاحتجاج الشعري واحداً من ابرز الأساليب الشعرية التي اغنى بها الشعراء قصائدهم على مستوى الأغراض كافة، ممّا أضفى على تلك القصائد روح التجدد والإبداع في مختلف العصور الأدبية ،ولاسيما في العصر العباسي ،لذا آثرنا دراسته في شعر أبي تمام ،كونه أكثر مقدرة على الاتيان به من سائر الشعراء العباسيين الآخرين ،ولكن قبل ذلك لابدّ لنا من وقفة على هذا المصطلح لتعرّف طبيعته من حيث اللغة والاصطلاح ودرجة العلاقة والارتباط بينهما.

**الاحتجاج لغةً:**

ورد في اللسان :حاجَجْتُه أُحاجُه حِجاجاً ومُحاجَّةً حتى حَجَجْتُه أي غَلَبتُه بالحُجَجِ التي أدليْتُ بها . والحُجَّةُ : البرهان ،وقيل :الحُجَّة مادُوفِعَ بها الخصم . وهو رجلٌ مِحْجاجٌ اي جَدِلٌ ،واحْتَجَّ بالشيء : اتّخذه حُجَّةً . [1]

ويقال : حاجَّهُ مُحاجَّةً وحِجاجاً : جادله . واحْتَجَّ عليه : أقام الحجّةَ . والحُجَّةُ الدليل والبرهان . والمِحجاج : الذي يُكثر الجدل.[2]

وقد ورد المعنى هذا مرّات عدّة في القرآن الكريم ،من مثل قوله تعالى : ((أَلَم تَرَ الى الذي حاجَّ ابراهِيمَ في رَبِّه...))[3] ،وقوله تعالى : ((فإنْ حاجُّوكَ فقل اسلَمْتُ وجهي للهِ...))[4] ، وقوله تعالى : ((فَمَنْ حَاجَّكَ فيه مِن بَعدِ ما جاءَك مِنَ العِلْمِ ...))[5] ،وقوله تعالى : ((هأنتُم هؤلاءِ حاجَجْتُم فيما لَكُم به عِلْمٌ فلِمَ تُحاجُّونَ فيما ليس لكُم به علمٌ...))[6]،وقوله تعالى : ((وحاجَّهُ قومُهُ قال أتُحجُونِّي في اللهِ وقد هَدَنِ ...)) [7] .

من ذلك كلّه تبيّن لنا أنّ الاحتجاج في اللغة : هو مقدرة المتكلم على اثبات صحّة ما يذهب اليه من خلال الجدل، والاتيان بالأدلة التي تثبت صدق ادعائه.

**الاحتجاج اصطلاحاً:**

لم يبتعد تعريف الاحتجاج في الاصطلاح عن تعريفه في اللغة ،فهو((أنْ تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الاول والحجة على صحته))[8]

**اختلاف المصطلح لدى القدامى والمحدثين واتفاقهم في جوهر الظاهرة:**

لم يكن حديث النقاد القدامى والمحدثين عن الظاهرة هذه في مستوى واحد ،إذ اختلفوا في التسميات التي وضعوها لها، فأبو هلال العسكري تحدث عنه تحت باب (في الاستشهاد والاحتجاج )،قائلاً : ((وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين ،وهو احسن مايتعاطى من اجناس صنعة الشعر )). [9]

في حين اطلق ابن سنان الخفاجي على الظاهرة مصطلح (الاستدلال بالتمثيل ) ،قائلاً: ((وأما الاستدلال بالتمثيل فأن يزيد في الكلام معنىً يدل على صحته بذكر مثال له )) [10] ،ثم تمثل بقول أبي العلاء المعري بوصفه دليلاً على ما يرمي اليه:

**لـــوِ اخْتَصَــرْتُم مِــنَ الاحســـانِ زُرْتُكُـــمُ والعَــذْبُ يُهْجَــرُ للإفــراطِ فــي الخَصَــرِ**

فدلَّ على أنّ الزيادة فيما يطلب ربما كانت سبباً للامتناع منه ،بتمثيل ذلك بالماء الذي لايُشْرَب لفرط برده ،وإنْ كان البردُ فيه مطلوباً محموداً .[11].

وعلى الرغم من ورود كلمة (احتجّ ) في حديث عبد القاهر الجرجاني ،إلّا أنّه تكلم على الظاهرة في باب (التشبيه الضمني )،وقد أكّد ذلك الدكتور أحمد مطلوب [12]،فهو (الجرجاني ) يرى أنّ التشبيه الضمني ضرب ((غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعي امتناعه واستحالة وجوده ،وذلك نحو قوله (يقصد المتنبي):

**فـــإنْ تَفُـــقِ الأنـــامَ وأنـــتَ مِـــنْهُم فـــإنَّ المِسْـــكَ بَعْـــضُ دَمِ الغَـــزَالِ**

وذلك أنّه أراد أنه فاق الانام وفاتهم الى حدّ بطل معه أنْ يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ،بل صار كأنّه أصيل بنفسه، وجنس برأسه، وهذ أمر غريب، وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به الى أن يصير كإنه ليس من ذلك الجنس ،وبالمدّعي له حاجة الى أنْ يصحّح دعواه في جواز وجوده على الجملة الى أنْ يجيء الى وجوده في الممدوح ،فإذا قال :(فان المِسكَ بعضُ دَمِ الغَزالِ) فقد احتجّ لدعواه وأبان أنّ لما ادعاه أصلاً في الوجود ،وبرّأ نفسه من صنعة الكذب وباعدها عن سفه المقدم على غير بصيرة ،والمتوسع في الدعوى من غير بيّنة ،وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى لا يعدّ في جنسه ،إذ لايوجدفي الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه لا ما قلّ ولا ما كثر ولا في المسك شيء من الأوصاف التي كان لها الدم دماً البتة ))[13] .

وتحدث الخطيب القزويني عن ظاهرة الاحتجاج في معرض تعليقه على قول أبي تمام الذي يقول فيه :

**وطُـول مُقـامِ المَـرْءِ فـي الحَـيِّ مُخْلِـقٌ لِـــــدِيبا جَبَيْـــــهِ فـــــاغْتَرِبْ تَتَجَـــــدَّدِ**

**فـــإنّي رأيـــتُ الشّـــمسَ زِيْـــدَتْ مَحَبَّـــةً الـــى النّـــاسِ أنْ ليســـتْ علـــيهم بِسَـــرْمَدِ [14]**

قائلاً : ((وقس حالك وأنت في البيت الاول ولم تنتهِ الى الثاني على حالك وانت قد انتهيت إليه ووقفت عليه تعلم بعد ما بين حالتيك في تمكن المعنى لديك ))[15] .

ثم أكّد القزويني تألّق المعنى وتأكيده في البيت الثاني ،معللاً ذلك بقوله :((وأنظر في جميع ذلك [كذا]الى المعنى في الحالة الثانية كيف يتزايد شرفه عليه في الحالة الاولى . ولذلك أسباب منها ما يحصل للنفس من الانس بإخراجها من خفي الى جلي كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة الى ما يعلم بالفطرة أو بإخراجها ممّا لم تألفه الى ما ألفته ))[16].

غير أنّ القزويني هو الاخر تحدّث عن الاحتجاج في باب التشبيه ،ولعله استوحى حديثه ذلك من كلام الجرجاني آنف الذكر ،والدليل على اعتقادنا هذا هو أنّه لجأ الى بيت المتنبي نفسه الذي اعتمده الجرجاني في تحليله التشبيه الضمني ،فهو (القزويني ) يرى أنّ الغرض من التشبيه يعود في الاكثر الى المشبه ،وقد يعود الى المشبه به ،أما الاول فيرجع الى وجوه مختلفة ،منها بيان أنّ وجود المشبه ممكن ،وذلك في كلّ أمر غريب يمكن أنْ يخالف فيه ويدّعي امتناعه ،كما في قول أبي الطيّب :

**فـــإنْ تَفُـــقِ الأنـــامَ وأنـــتَ مِـــنْهُم فـــإنَّ المِسْـــكَ بَعْـــضُ دَمِ الغَـــزَالِ**

ارادته فإن الأنام في الاوصاف الفاضلة الى حدٍّ بطل معه أنْ يكون واحداً منهم ،بل صار نوعاً آخر برأسه أشرف من الانسان ، وهذا أعنى أنْ يتناهى بعض أفراد النوع في الفضائل الى أن يصير كأنه ليس منها أمر غريب يفتقر من يدّعيه الى اثبات جواز وجوده على الجملة حتى يجيء الى ثبات وجوده في الممدوح ،فقال :(فإنّ المِسكَ بعضُ دَمِ الغزالِ) ،أي ولا يعد في الدماء ؛لانّ فيه من الاوصاف الشريفة التي لا يوجد شيء منها في الدم وخلوه من الاوصاف التي لها كان الدم دماً فأبان أنّ لما ادّعاه أصلاً في الوجود على الجملة [17].

إنّ الحديث عن الظاهرة في باب التشبيه الضمني لدى بعض النقاد القدامى لا يخرجها عن دائرة بحثنا ؛فالأبيات التي تمثّلوا بها تتضمن الاحتجاج ،أي انّ الاحتجاج موجود سواء أكان في الجمل التشبيهية أم في الجمل التي لا تتضمن التشبيه ،وعلى وفق المبدأ هذا ستكون دراستنا للظاهرة في شعر أبي تمام .

أمّا فيما يخصّ النقاد المحدثين ،فإنهم تناولوا الظاهرة كما تناولها القدامى ،فبعضهم تحدّث عنها على أنها ظاهرة مستقلة بذاتها كما فعل الدكتور شوقي ضيف،[18] في حين تحدث عنها الآخرون بوصفها ظاهرة تتعلق بالتشبيه الضمني تارة ،وبالتشبيه التمثيلي تارة اخرى ،ومن أولئك الدكتور أحمد مطلوب الذي رأى أنّ الفكرة الرئيسة التي ينهض عليها التشبيه الضمني هي أنّ هذا اللون من التعبير لايأتي فيه الطرفان في اسلوب من أساليب التشبيه ،وإنما يُلمح المشبّه و المشبّه به ،ويفهمان من المعنى ،ويكون المشبّه به دائماً برهاناً على امكان ما أسند اليه المشبّه [19].

ولأن التشبيه ((كلّما دقّ وخفي كان أبلغ وأفعل في النفس ))[20]،يرى الدكتور أحمد مطلوب أنّ للتشبيه الضمني خمس خصائص مجتمعة على حدٍّ قوله ،هي :

1_((انّ المشبّه والمشبّه به كليهما يلمحان ويستنتجان بلا ترابط نحوي مباشر فيما فيهما بخلاف أنواع التشبيه التي يأتي فيها الطرفان في بناء لغوي تتحكم بتوجيهه قواعد انشاء الجملة العربية ،كأن يكون المشبه مبتدأ أو ما في حكم المبتدأ ويكون المشبه به خبراً أو ما هو في حكم الخبر وكأنّ يكون المشبّه به مضافاً والمشبّه به مضافاً اليه ،أو يكون المشبّه فعلاً مسنداً والمشبّه به مصدراً مبيناً لنوعه ))[21].

2_((ان المشبّه جملة أو مجموعة جمل مستقلة منفصلة عن المشبّه به الذي يجيء جملة أو طائفة من الجمل أيضاً))[22].

3_((ان المشبّه يثير فكرة فيها غرابة وادعاء فلا يسلّم بها القارئ تسليماً مبادراً،وإنّما يحتاج في القبول بها الى دليل يقنعه ويرسّخ اعترافه بها))[23].

4_((ان المشبّه به يستوي مثلاً وشاهداً تقرّبه العقول بداهة وتطمئن القلوب الى صحّته سليقة كأنْ يكون مستقرّاً في الطباع أو جارياً مجرى السنّة والقانون في الحياة والمشاهدة ))[24].

5_((ان حال المشبّه وحال المشبه به اللذين يلمحهما القارئ تتكافآن وتتساويان بلا زيادة لأحداهما على الأخرى وبلا نقصان لطرف عن سواه))[25].

أما أحمد الهاشمي ،فقد تناول الظاهرة في مناسبتين مختلفتين بعض الشيء ،إذ تحدّث عنها في باب التشبيه التمثيلي ،ثم تحدث عنها في باب التشبيه الضمني ،فجاء حديثه عنها في الاول في معرض بيان تأثير تشبيه التمثيل في النفس ،إذ يرى أنّه ((إذا وقع التمثيل في صدر القول :بعث الى النفس بوضوح وجلاء مؤيد بالبرهان ،ليقنع السامع ،وإذا أتى بعد استيفاء المعاني كان :

1_إمّا دليلاً على إمكانها ،كقول المتنبي :

**وما أنا منهُمُ بالعَيشِ فيهِمْ ولكنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ**

2_وإمّا تأييداً للمعنى الثابت ،نحو :

**ترجو النّجاةَ ولم تسلك مسالِكَها إنّ السفينةَ لا تجري على اليبسِ**

وعلّة هذا:أن النفس تأنس إذا أخرجتها من خفي الى جلي ،وممّا تجهله الى ما هي به أعلم)) [26].

وفيما يخصّ حديثه عن الاحتجاج في معرض تعريفه بالتشبيه الضمني، فهو يرى أنّه ((تشبيه لايُوضَعُ فيه المشبّه والمشبّه به،في صورة من صور التشبيه المعروفة ،بل يلمحُ المشبّه والمشبّه به، ويُفهمان من المعنى ،ويكون المشبّه به دائماً برهاناً على إمكان ما أسند الى المشبّه ،كقول المتنبي :

**مَـــنْ يَهُـــنْ يَسْـــهُلُ الهَـــوَانُ عليـــه مـــــا لِجُـــــرْحٍ بمَيِّـــــتٍ إيـــــلامُ**

**أي:**أنّ الذي اعتاد الهوان ،يسهل عليه تحمله ، ولايتألم له ،وليس هذا الادّعاء باطلاً؛ لان الميت إذا جرح لا يتألم .وفي ذلك تلميح بالتشبيه في غير صراحة ،وليس على صورة من صور التشبيه المعروفة، بل إنه (تشابُهٌ) يقتضي التساوي ،وأما (التشبيه) فيقتضي التفاوت ))[27].

والقول نفسه ينطبق مع ما ذهب اليه (أحمد مصطفى المراغي )الذي تحدّث عن الظاهرة في أثناء تعرّضه للتشبيه التمثيلي، فضلاً عن التشبيه الضمني،إذ لم يخرج حديثه عما جاء به أحمد الهاشمي [28] .

إن الابيات التي تمثّل بها بعض النقاد القدامى والمحدثين ،بوصفها أمثلة على التشبيه التمثيلي والضمني،هي نفسها الامثلة التي سنستدلّ بها،بوصفها أدلة على الاحتجاج الشعري،لذا فهي لاتخرج عن مجال بحثنا كما سنرى.

**غاية الاحتجاج:**

إن عبقرية الشعراء العرب الأفذاذ لاتدعهم يأتون بأساليب شعرية من دون أسباب أو أهداف تدعوهم إليها ،لذا فقد كان الاحتجاج _سواء تضمّن التشابه أو لم يتضمّنه _ يحتوي على غايات قصد اليها أولئك الشعراء ،سنحاول تعريفها فيما يأتي .

يأتي الاحتجاج بوصفه معنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على المعنى الاول والحجّة على صحته[29]،وبوساطته تُرى الأشياء بعضها من خلال بعضها ،بل يتخذ بعضها دليلاً وحجة على بعض[30]،وهو فضلاًعن ذلك يزيد في الكلام معنى يدل على صحّته بذكر مثال له [31].

والاحتجاج لدى الجرجاني يُبَرّئ المتكلم من صنعة الكذب [32] ،ومن خلاله يثير الشاعر ((فكرة فيها غرابة وادعاء ،فلا يسلّم بها القارئ تسليماً مبادراً ،وإنما يحتاج في القبول بها الى دليل يقنعه ويرسّخ اعترافه بها ))[33] ،ويأتي الاحتجاج أيضاً ((مثلاً وشاهداً تقرّ به العقول بداهة وتطمئن القلوب الى صحته سليقةً كأن يكون مستَقَرّاً في الطباع أو جارياً مجرى السنة والقانون في الحياة والمشاهدة ))[34].

ويساعد الاحتجاج على تمكن المعنى وترسخه لدى المتلقي ؛وذلك بسبب ما يحصل للنفس من الانس بإخراجها من خفي الى جلي كالانتقال ممّا يحصل لها بالفكرة الى ما يعلم بالفطرةأوباخراجها ممّا لم تألفه الى ما ألفته .[35]

ويرى الهاشمي أن التمثيل إذا وقع في صدر القول بعث الى النفس بوضوح وجلاء مؤيد بالبرهان ،ليقنع السامع ،وإذا أتى بعد استيفاء المعاني كان إمّا دليلاًعلى إمكانها، وإما تأييداًللمعنى الثابت ،وهو فضلاًعن ذلك يكسب القول قوة ،فإن كان في المدح كان أهزّ للعطف ،وأنبل في النفس ،وإنْ كان في الذم كان وقعه أشدّ ،وإنْ كان وعظاً كان أشفى للصدر وأبلغ في التنبيه والزجر ،وإنْ كان افتخاراً كان شأوه أبعد [36]،ولتأكيد قوله تمثّل ببيت لابن الرومي في الغزل،يقول فيه:

**ويـــلاهُ إنْ نَظَـــرَتْ وإنْ هـــي أعْرَضَـــتْ وَقْـــعُ السِّـــهامِ وَنَـــزْعُهُنَّ ألـــيمُ** [37]

ويكسب الاحتجاج المعاني منقبة ويرفع قدرها ،ويجعل لها في القلوب هزّة وارتياحاً،فأنّك إذا تأملت حالك وحال المعنى قبل التمثيل وبعده ترى بوناً شاسعاً ومسافة الخلاف متسعة [38].

ممّا سبق تبيّن لنا أنّ الشعراء الذين أضفوا على شعرهم أدلة منطقية،كانوا يريدون بها إ قناع السامعين بما جادت به عبقرياتهم[39]، ولإزالة الشّك لدى المتلقين ،وكشف اللبس الذي حصل لديهم في معانيهم المتقدمة قبل التمثيل بالأدلة العقلية والمنطقية.

**مناهل الاحتجاج في شعر أبي تمام :**

من المعروف أنّ أبا تمام امتاز بقوة شاعريته وعدم بساطتها،فضلاً عن لجوئه الى العقل والمنطق في مناسبات عدّة من شعره لتأكيد حقائق معينة في نفوس المتلقين،وإزالة أي التباس في أذهانهم يتعلق بأقواله ،لذا شبّهه بعضهم بالقاضي العدل الذي ((يضع اللفظة موضعها ،ويعطي المعنى حقّه ،بعد طول النظر والبحث عن البيّنة))[40].

اختلفت الموارد التي ينهل منها أبو تمام بيّناته التي يؤكد فيها صدق مزاعمه ،ويؤيد صحّة ما يذهب اليه ،فمنها ما استقاه من الطبيعة الساحرة بمائها وزرعها وحيوانها ،أي انّه لجأ الى الامور الواقعية البارزة للعيان لتأكيد وجهات نظره المختلفة تجاه الامور التي يتكلم عليها،ومنها ما لجأ فيه الى آلة الحرب المعروفة في ذلك الوقت ،بوصفها دليلاً لايمكن انكاره فيما يذهب اليه وغير ذلك من الامور التي استعان بها الشاعر ،ليجعل متلقيه مطمئناً لما يأتي به ويدعيه، من خلال البراهين الواضحة والأدلة المؤكدة التي لا تقبل الجدال كما سنرى .

ولكن قبل الدخول في الحديث المفصّل عن مناهل الاحتجاج في شعر أبي تمام ،لا بدّ من الاشارة الى أنّ صلة الشاعر بالفلسفة والمنطق هي التي جعلته يُكثر من استخدام الأدلة المنطقية والعقلية في شعره [41]،فيغدو بعضها دليلاً على بعض.

كانت الطبيعة وما يُستوحى منها من أهم المناهل التي استقى منها الشاعر أدلته التي احتجّ بها لاقناع السامعين،فأفاد من عناصرها كلها تقريباً ،للوصول الى أهدافه وتحقيق القناعة التامة لآرائه التي طرحها في شعره،وكان الماء أول تلك العناصر الطبيعية، لذا فقد أفاد منه أبو تمام في كثير من أدلته الواقعية ،فنراه في معرض حديثه عن شراسة ممدوحه، يرى أنّها (الشراسة)لا تَصْلُح إلاّ باللّين، وليؤكد زعمه المتناقض ذلك، يلجأ الى دليل واقعي، أَلاَ وهو الخمرة والعياذ بالله، فهو يرى أنّها لا تَصْلُح إلاّ بعد مزجها بالماء، لتخفيف حدّتها، فيقول:

**شَـــرِسٌ ويُتْبـــعُ ذاك لِـــينَ خَلِيقَـــةٍ لا خَيـرَ فـي الصَّـبهاءِ مـا لَـمْ تُقْطَـبِ**[42]

وبذلك غدا الماء هنا دليلاً قاطعاً على صدق زعم الشاعر الذي جمع بين شراسة ممدوحه وسماحة خلقه من خلال الدليل الذي استدلّ به .

ولا يخفى ما لبيته المشهور في تفضيل الغنى على البخل من روعة فيما يتعلق بموضوع بحثنا ،فهو لكي يؤكد عطل الكريم من الثراء ،يستدل بحرب السيل للمكان العالي ،فيقول :

**لا تُنكـــري عَطَـــلَ الكَـــرِيمِ مِـــنَ الغِنَـــى فالســـيلُ حَـــربٌ للمكـــانِ العـــالي** [43]

ولا يتردّد الشاعر في اللجوء الى الماء في أيّة مناسبة تسنح له،بوصفه منقذاً لنظريته التي يرمي إليها،فالموت -لدى الشاعر -يختار أفاضل الناس سريعاً،في حين يمتدّ عمر الآخرين ممن هم دونهم،كما أنّ الماء العذب ينفد سريعاً،في الوقت الذي يبقى فيه الماء الأسن غير الصالح للشرب مدّة أطول :

**إنْ يَتْتَجِـــلْ حَـــدَثَانُ الـــدَّهْرِ أنْفُسَـــكُمْ وَيَسْـــلَمِ النـــاسُ بـــينَ الحَـــوْضِ والعطَـــنِ**

**فالمـــــاءُ لـــــيس عَجيبـــــاً أنَّ أعْذَبَـــــهُ يَفْنَـــى وَيَمْتَـــدُّ عُمْـــرُالآجِنِ الأسِـــنِ** [44]

ولا يخفى ما لهذه الصورة الشعرية من قيمة جمالية،ففيها -كما في غيرها - تتأكد مقدرة الشاعر على رسم الصور الشعرية الجميلة من ناحية ،ومن ناحية أخرى تؤكدتمكنه من أدواته الفنية ،التي استطاع من خلالها كسب عواطف المتلقين عموماً ،وتفاعلهم مع الصور الشعرية ،من خلال ما رسمه لهم من الحقائق الواقعية التي استمدها ممّا وفّرته له الطبيعة الساحرة .

إنّ جود الممدوح يُرتَجى من لدن أبي تمام ،حتّى وإن حجبه عنه،كما يرتجي الناس الماء من السماء بعد احتجابها:

**يـــا أيُّهـــا المَلِـــكُ النـــائِي برُؤيتـــهِ وَجُـــودُهُ لِمُرجِّـــي جُـــودهِ كَثِـــبُ**

**لـــيس الحِجـــابُ بمُقْـــصٍ عَنـــكَ لـــي أمَـــلاً إنَّ السَّـــماءَ تُرَجَّـــى حِـــينَ تَحْتَجِـــبُ** (45)

وهكذا استثمر أبو تمام أوّل عنصر من عناصر الطبيعة في احتجاجاته المتميزة بصدق واقعيتها،وجودة نظمها،وقوّة تأثيرها في كسب قناعة المتلقي ،وأعني به عنصر الماء ،الذي جاء دليلاً - في مناسبات مختلفة -على صدق نظريات الشاعر المتعددة في الكون وظواهره المختلفة.

ويذهب أبو تمام- في مناسبات أخر - الى عنصر آخر مختلف ،ليستعين به في بناء أبياته الاحتجاجية - إنْ صحَّ القول -وهو نقيض الماء ،ألا وهو عنصر (النار)،فقد استثمر الشاعر هذا العنصر كثيراً في التمثيل بأدلته العقلية والمنطقية ؛لاقناع مستمعيه ومتلقيه على حدٍّ سواء.

ولعلّ من أبرز احتجاجات الشاعر التي استعان بها بالنار،بوصفها دليلاً أكيداً على تأييد ما يذهب اليه ،هو ما رأى فيه من أنّ الفضائل التي يأكل عليها الدهر ويشرب ،وتصبح في طيّ النسيان ،ستنتشر من جديد فيما لو أراد لها اللهُ (سبحانه وتعالى )ذلك الانتشار،من خلال تسليط الحاسد للحديث بالسوء عنها وعن أصحابها،ومن دون شكّ،فإن هذا الكلام يحتاج الى دليل لإثبات صحّته ؛لانّه يؤدي بالمتلقي الى الشّكّ فيما يدّعيه الشاعر،لذا نراه يلجأ الى النار التي حين اشتعالها بعَرف العود،فأنّ ذلك الاشتعال يؤدي الى ابراز عطره ،وهنا تكمن المفارقة الكبيرة في شعر أبي تمام :

**وإذا أرادَ اللهُ نَشْـــــــرَ فَضِـــــــيلَةٍ طُوِيَـــتْ أتـــاحَ لهـــا لِسَـــانَ حَسُـــودِ**

**لَـــوْلَا اشـــتعالُ النّـــار فيمـــا جَـــاوَرَتْ مـــا كـــانَ يُعْـــرَفُ طيـــبُ عَـــرْفِ العُـــودِ** (46)

وتأتي النار -في مناسبة مختلفة -وذلك في اثناء غضب ممدوح الشاعر فيما لو تطلب الموقف منه ذلك،على الرغم من حلمه وصبره ،وذلك كي يُرجى ويُخاف في الوقت ذاته،فمثله في ذلك مثل النار التي يتطاير منها الشرار ،على الرغم من فائدتها للناس:

**حَلِـــيمٌ والحَفِيظَـــةُ مِنـــهُ خِـــيمٌ وأيُّ النّـــارِ لـــيسَ لهـــا شَـــرَارُ؟**(47)

ولكي يؤكد الشاعر أنّ القتل بقسوة كبيرة للأعداء من لدن ممدوحه ليس طبيعة فيه ،وإنما بسبب إجبارهم إيّاه على القسوة معهم على ذلك النحو،نراه يفرّ الى النار ليستخرج منها دليلاً على صدق زعمه،فيقول :إنّ النار قد تُستخرج من الخشب النضر الذي لم يتيبّس بعد،وذلك من خلال الالحاح عليه في استخراج تلك النار ،وبذلك يعطي الشاعر قوله مصداقية أكيدة من خلال الدليل هذا ،قائلاً:

**أخرَجْتُمُـــوهُ بِكُـــرْهٍ مـــن سَـــجِيَّتِهِ والنّـارُ قـد تُنْتَضَـى مِـن ناضِـر السَّـلَمِ** (48)

إذن،استعان ابو تمام بمنهلين مهمين ومتناقضين في الوقت نفسه من عناصر الطبيعة في تكوين احتجاجاته الشعرية الجميلة، وأعني بهما عنصري الماء والنار،وهو لم يكتفِ بذلك،وإنّما لجأ الى امور طبيعية أُخرفي رسم صوره الشعرية في الاحتجاج،كان من أبرزها اللجوء الى الحيوانات،ولا سيما الأسد منها على وجه خاص.

استعان الشاعر بالأسد كثيراً في بناء احتجاجاته في مناسبات مختلفة كما سنرى،فمنها ما جاء في غرض المديح،إذ لايتعجّب الشاعر من احتجاب ممدوحه محمد بن عبد الملك الزيات،ولا يستغرب من عدم رؤيته في كثير من الاوقات؛لأنّ احتجابه -كما يرى الشاعر -أمر اعتيادي تماماً،وليدلّل على اعتيادية فعله ذلك،يتمثّل بالأسد الذي لا يُرى في الاوقات كلّها ؛لأنه يحتجب كثيراً في عرينه أيضاً،وبالاحتجاج هذا ينفي الشاعر صفة الغرابة عن احتجاب ممدوحه، وعدم ظهوره كثيراً:

**إنْ تَمْتَنِـــعْ منـــهُ فـــي الأوقـــاتِ رُؤْيَتُـــهُ فكُـلُّ لَيـثٍ هَصـورٍ غِيلُـهُ أَشِـبُ** (49)

والكلام نفسه يقال حين يمرض ذلك الممدوح،فالأسد يمرض أيضاً،ولا عجب في مرض الاثنين، على حدِّ قول الشاعر نفسه:

**فـــإنْ تَـــكُ قـــد نالَتْـــكَ أطـــرافُ وَعْكَـــةٍ فَـلا عَجَـبٌ أنْ يُوْعَـكَ الأسـدُ الـوَرْدُ** (50)

وحينما يرثي الشاعر،فإنه يرى في خَلَف المرثي بديلاً أصيلاً عنه،ولايختلف عن سابقه في شيء على الاطلاق،ومثله في ذلك مثل الشبل بعد ذهاب الأسد،يقول :

**أضـــحَى لنـــا بَـــدَلاً منـــهُ تَنُـــوءُ بـــهِ والشَّـبْلُ مِـن ليثِـهِ إمّـا مَضَـى بَـدَلُ** (51)

ولم ينسَ أبو تمام جمال الطبيعة المتمثّل بالزرع بمختلف أصنافه من الأشجار وغيرها في احتجاجاته،لذا نراه يستعين بهذا الجانب من الطبيعة في الاستشهاد بالأدلة الواقعية والمرئية في كثير من شعره.

فعندما يقسو الدهر مع الشعراء، نراهم يفرّون الى ممدوحيهم، ليخلصوهم من قسوته تلك، بأسلوب من أكثر أساليب المديح انتشاراً في الشعر العباسي،وهذا ما فعله أبو تمام عندما شعر بإساءة الدهر له، إذ وجدناه يشيد بحسن فعل ممدوحه معه في تلك الأثناء،وليبرهن على أنّ اساءة الدهر تلك كانت سبباً رئيساً لمعرفة حسن صنيع ممدوحه، نراه يلجأ الى نبات الحنظل ليحتج به، فلولاه – على حدّ قولهِ– لما عُرِفَ طعم العسل ،قائلاً:

**إســـاءَةَ دَهْـــرٍ أَذْكَـــرَتْ حُسْـــنَ فِعْلِـــهِ الـيَّ وَلَـوْلاَ الشَّـرْيُ لـم يُعْـرَفِ الشَّـهْدُ (52)**

**1**

وحين يرغب الشاعر في الاشادة بخليفة المرثي من ناحية كرمه ،وتحمّله لأعباء المسؤولية ،نراه يصوّره وكأنّه شيخ كبير،على الرغم من حداثة سِنّه ،فيعدّه في ذلك كالزرع في بداية انباته، ثم يتّصل بعضه ببعض الى أنْ يغلظ ويشتد،في دلالة قاطعة لتشبيه طبيعة الممدوح بطبيعة ذلك الزرع في أصل تكوينه،قائلاً:

**يُعطِـــي فيُجْـــزِلُ أو يُـــدْعَى فَيَنْـــزِلُ أو يُـــؤْتَى لَمَحْمَـــلِ أعبـــاءٍ فَيَحْتَمِـــلُ**

**تَظُنُّـــــهُ شَـــيْخَه لَـــوْلا شَـــبِيبَتُهُ والـــزَّرعُ يَنْبُـــتُ ثُـــمَّ يكتَهِـــلُ**(53)

إنّ عامل التجربة لدى أبي تمام جعله يُنتجُ كثيراً من الحكم في شعره لأسباب مختلفة،وهو عندما يسطّر تلك الحكم،نراه يؤكد مصداقية قوله في بعضها عن طريق الاحتجاج،بوساطة لجوئه الى الطبيعة كما ذكرنا سابقاً،فمنها ما يرى فيه الشاعر أنّ المرءَ الذي يتصف بالحياء في شخصيته،فإنه يعيش مكرماً ومحترماً بين الناس،فلا يذكره الآخرون إلا بالكلام الطيّب الذي يستحقه،ومثله في ذلك كمثل العود الذي يبقى بهياً ما دام بقاء اللحاء فيه،وهو إنما يريد تشبيه المرء بالعود،والحياء باللحاء،فيقول في ذلك :

**يَعِـيشُ المـرءُ مـا اسـتحيى بخَيـرٍ ويَبقـى العُـودُ مـا بَقِـيَ اللِّحـاءُ**(54)

وبذلك نجد أن أبا تمام قد أفاد من عناصر الطبيعة جميعاً في تكوين احتجاجاته، لاقناع سامعيه، وكسب تعاطفهم معه، بما يراه ويعتقده، من خلال نجاحه في إزالة شكوكهم في معانيه التي سبقت المعاني التي احتجّ بها فيما بعد.

وفضلاً عما سبق ذكره،استثمر الشاعر ظاهرات طبيعية أُخر في شعره موضوع البحث،وأعني بها ما يدور في الفلك من الأجرام السماوية كالشمس واالقمر والنجوم، إذ جاء بها في بعض شعره ،بوصفها أدلة ملموسة ومقنعة يحتجّ بها على مُنكري قوله ،فمن ذلك مثلاً أنه كان يرى في طول بقاء المرء في مكانه،وعدم سفره وكشفه لآفاق جديدة،ركوداً وعدم تجدّد،لذا فهو ينصح بالسفر الدائم،من أجل التجدد واضفاء الحيوية على حياة الانسان ،ودليله في ذلك الوعظ،الشمس،التي تزداد محبتها من لدن الناس؛لعدم بقائها ثابتة عليهم،بل لسفرها المتواصل،فتغدو بين ذاهبة عنهم،وقادمة اليهم،يقول:

**وطُـول مُقـامِ المَـرْءِ فـي الحَـيِّ مُخْلِـقٌ لِدِيباجَتَيْـهِ فـاغْتَرِبْ تَتَجَـدَّدِ**

**فـإنّي رأيـتُ الشّـمْسَ زيـدتْ مَحَبّـةً الـى النّـاسِ أنْ لَيسـتْ علـيهم بِسَـرْمَدِ**(55)

وعندما تحدّث الشاعر عن المرض الذي أصاب ممدوحه أحمد بن أبي دُواد وغيّر لونه، جعل من ذلك اللون الذي غيّره مرض ممدوحه، كالنجم الذي يختفي توهّجه مدة من الزمن ؛بسبب البخار الذي يستره،ثم سرعان ما يعود الى التوهج والبريق عند انجلاء ذلك البخار،في دلالة أكيدة على عودة لون الممدوح الطبيعي بعد زوال علته التي اصابته :

**وحَـالَ لَـونٌ فـرَدَّ اللهُ نَضْـرَتَهُ والـنَّجْمُ يَخْمُـدُ شـيئاً ثُـمَّ يَشْـتعِلُ**(56)

وحين يرثي الشاعر، فإنه لا يستغني عن الشمس، بوصفها منقذاً له ومخلصاً في مثل ذلك الموقف ،فضلاً عن كونها حجةً مقنعة تُدلّل على مصداقية قول الشاعر في المرثي، وعدم مبالغته فيما طرحه وادعاه من أمور، فهو يرى أنّ الناس بعد ذهابهم عن قبر مرثيه، رجعوا وأياديهم فارغة منه، في الوقت الذي امتلأت فيه قلوبهم حزناً على فقده؛وذلك لانهم علموا بفقده من دون أيّ أمل بعودته،وليؤكد الشاعر تلك الفكرة،يعلل قوله بإدراك الناس لفقد الشمس بعد غروبها، فطالما هي موجودة، لا يشعرون بما قد يحدث لهم بعد غروبها،ولكن بعد أن تغرب يكونون أمام الأمر الواقع، فيشعرون بفقدها، وبتأثيرها فيهم من بعد ذهابها :

**راحَـتْ وُفـودُ الأرضِ عـنَ قبْـرِهِ فارِغَـةَ الأيْـدِي مـلاءَ القُلُـوبِ**

**قـد عَلِمَـتْ مـاُ رزِئَـتْ إنّمـا يُعْـرَفُ فَقْـدُ الشَّـمسِ بعـدَ الغُـرُوبِ** (57)

وللهلال نصيب حيوي من احتجاجات أبي تمام،ولاسيما في غرض الرثاء الذي كَثُرَ الاحتجاج فيه على وجه خاص في شعره،وجاء ليعبر عن تأزم حال الشاعر من الناحية النفسية، وانفعاله الحقيقي وغير المفتعل، فالانسان حينما يرى الهلال يدرك أنه سيغدو بدراً بعد مدة محددة من الزمن،وهذا المثل الواقعي إنما جاء به الشاعر ليؤكد أن مرثيّيه- اللذين توفّيا في حداثة سنّهما- لو أمِهلا زمناً،لأصبحا من خيرة الرجال،ولا سيما أنهما من أبناء عبد الله بن طاهر ،فمثلهما في ذلك مثل الهلال كما ذكرت،يقول:

**لَهْفِـــي علـــى تلـــكَ الشَّـــوَاهِدِ فِيهمـــا لَـــوْ أُمْهِلَـــت حَتّـــى تكـــونَ شَـــمَائِلا**

**لَغَـــدَا سُـــكونُهما حِجًـــى وصِـــبَاهُما حِلْمـــاً وتلـــكَ الأريحيَّـــةُ نـــائِلا**

**ولأَعْقَـــبَ الـــنَّجْمُ المُـــرِذُّ بديمَـــةٍ ولَعـــادَ ذَاكَ الطَّـــلُّ جَـــوْداً وَابـــلا**

**إنَّ الهِـــــلالَ إذا رأيـــــتَ نُمُـــــوَّهُ أيقَنْـــتَ أنْ ســـيكونُ بَـــدْراً كـــامِلا(58)**

وكانت آلة الحرب منهلاً آخر من مناهل الاحتجاج في شعر أبي تمام،يُضاف الى منهل الطبيعة الذي سبق وانْ تم الكلام عليه،فكانت السيوف والرماح ممّا يَحتَجّ بها الشاعر ،ويكرر ذكرها في شعره الذي يروم فيه إزالة الشّكّ عن عقول مستمعيه ومتلقيه على حدٍّ سواء ،وربما كان ذلك الإكثار من الاحتجاج بها نابعاً أصلاً من كونه شاعراً مدّاحاً وراثياً لكثير من الشخصيات التي برزت في عصر الحروب والفتوحات مع الروم والبيزنطيين، وبطبيعة الحال لا توجد أيّة غرابة من كثرة استخدام ألفاظ السلاح في تلك المدائح أو المراثي ،فهي من لوازم تلك القصائد بحكم واقع العصر ،وطبيعة شخصية الممدوح أو المرثي.

كان أبو تمام على قناعة بأنّ الهرم لا يعني ذهاب قوَّة الانسان، بل على العكس من ذلك،فأن الرجل الهرم يبقى محتفظاً بقوته كما كان في شبابه، وبلا شكّ فأنّ الآخرين غير مجبرين على تصديقه ،لأن رأيه ذلك يناقض الواقع،لذا فهو بحاجة ماسة الى دليل قوي يؤكد قناعته تلك،فآثر اختيار السيف ليكون حجّة قوية تدعمه في رأيه غير الواقعي ؛لأنه وإنْ طالَ الزمان عليه (السيف)، وأصابه التثلّم؛ لكثرة المعارك التي اشترك فيها مع أصحابه،فانه يبقى محتفظاً بصفته القاتلة،ولا تغيّر تلك الخصائص من طبيعته المعروفة،فيقول:

**لاتُنْكِـــري منـــه تخديـــداً تَجَلَّلَـــهُ فالسّـــيفُ لايُـــزْدَرَى إنْ كـــان ذا شُـــطَبِ(59)**

ولا يقتصر استخدام السيف من لدن الشاعر على هذا الموضوع فحسب،بل نراه يستنجد به في معرض افتخاره بنفسه أيضاً،فهو يتباهى بأنه إذا عزم على فعل أمرما، فانه لا يستمع لأقوال اللائمين، فلا يؤثرون فيه تأثيراً سلبياً،لأنه مجتهد في تحقيق عزيمته في جمع المال،ما دام في زمن الشباب الذي ما إنْ يذهب،فانه يأخذ معه ذلك الاصرار، وتلك العزيمة، لذلك وجدناه يخيّر عاذلته إما أن تدعه يرحل لتحقيق مبتغاه، وإما أنّ تجعل النساء تندبه،وشاهده على ذلك كما ذكرت هو السيف الذي يرى الشاعر أنه إذا طال به العهد، فانه ينبو ولا يقطع، وبذلك يكون السيف دليلاً على صدق رأيه،مع تحفّظنا على الدليل هذا؛لأنه يناقض تماماً ما جاء به في البيت السابق :

**دَعِينِـــي علـــى أخلاقِـــيَ الصُّـــمَّ لِلَّتـــي هِـــيَ الـــوَفْرُ أو سِـــرْبٌ تُـــرِنُّ نَوادبُـــهْ**

**فـــإنّ الحُســـامَ الهُنْـــدُوَانِيَّ إنّمـــا خُشُـــونَتُهُ مـــالَمْ تُفَلَّـــلْ مضـــارِبُهْ**(60)

وفيما يتعلّق باستخدام الرمح في احتجاجات الشاعر،بوصفه حجّة متينة عنده،نرى أنه يأتي به حين يتحدّث عن علّة ممدوحه أحمد بن أبي دُوَاد، فمرضه كان مؤقتاً ثم شُفِيَ منه،فهو-في ذلك-كالرمح يُعوَجّ حيناً من الزمن ،ثم يعتدل بالتثقيف،فيقول:

**سُـــقْمٌ أُتِـــيحَ لـــهُ بُـــرْءٌ فذَعْذَعَـــهُ والـــرُّمْحُ يَنـــآدُ حِينـــاً ثُـــمَّ يَعْتَـــدِلُ** (61)

وعندما يمدح الأفشين، نراه يصفه بالتواضع، على الرغم من شجاعته وبسالته،ولكن تواضعه هذا هو ما جعله عزيزاً،وهو في فعله ذلك شبيه الرمح الذي يشتدّ حين يلين :

**لَانَـــــتْ مَهَزَّتُـــــه فَعَـــــزَّ وإنّمـــــا يَشْـتَدُّ بـأسُ الـرُّمْحِ حِـينَ يِلَـينُ**(62)

من ذلك كلّه تبين لنا أن أهم منهلين للاحتجاج في شعر أبي تمام،كان قد استقاهما من الطبيعة بمنابعها المتعددة والمتنوعة كما رأينا،فضلاً عن آلة الحرب المتمثلة باعتماد السيوف والرماح على وجه الخصوص،بوصفها أمثلة مقنعة في احتجاجات الشاعر .

**<u>علاقة الاحتجاج بالغرض الشعري :</u>**

عُرَفِ أبو تمام بإجادته لغرضين رئيسين في شعره،أَلَا وهما المديح والرثاء،ولهذا السبب كان مجيء الاحتجاج في هذين الغرضين أكثر من سواهما في الأغراض الأُخر،كالعتاب والفخر والغزل وما سوى ذلك كما سيتبيّن لنا بعد قليل . غير أن ما يهمّنا في المجال هذا،ليس الغرض الذي ورد فيه الاحتجاج،بقدر علاقة ذلك الاحتجاج بالغرض الذي جاء من خلاله،إذ لم يأتِ الشاعر باحتجاجاته على مستوى واحد قي أغراضه جميعاً،بل كانت هناك علاقة خفية،وربما واضحة في بعض الأحيان بين ما يتمثل به وطبيعة ذلك الغرض.

ففي المديح مثلاً،نراه يبحث عن العذر المنطقي ليسوّغ لمتلقيه عدم غرابة الصفة التي يتحلّى بها ممدوحه، كما فعل مع عمر بن طوق التغلبي، الذي على الرغم من شراسته وحدّته،تميّز باللّين في بعض الأحيان،تلك الصفة التي سوَّغها عن طريق احتجاجه الذي جعل فيه الخمرة غير محبّبة،إنّ لمْ تمزج بالماء للتقليل من قوة تأثيرها،كما مر بنا في وقت سابق:

**شَـــرِسٌ ويُثْبِـــعُ ذَاكَ لِـــينَ خَلِيقَـــةٍ لا خَيـرَ فـي الصَّـهْباءِ مـالَمْ تُقْطَـبِ**(63)

وكذا الحال مع ممدوحه محمد بن عبد الملك الزيات،الذي اتصف بعدم ظهوره بشكل مستمر، فسوّغ له الشاعر ذلك الفعل عن طريق تشبيهه بالأسد الذي يحتجب ولا يظهر بكثرة في معظم الأوقات ،قائلاً:

**إنْ تَمْتَنِـــعْ منـــهُ فـــي الأوقـــاتِ رُؤيَتُـــهُ فَكُـــلُّ لَيـــثٍ هَصُـــورٍ غِيلُـــهُ أشِـــبُ**(64)

ففي المثالين السابقين يسعى الشاعر الى ايجاد المسوّغ المنطقي أو الواقعي،ليؤكد أن الصفات التي اتصف بها ممدوحيه طبيعية وليست غريبة،أو منافية للمألوف،بحكم الأمثلة التي كان يستدلّ بها، والتي لا تترك مجالاً في نفوس المتلقين يدفعهم الى الشكّ فيما يدعيه الشاعر.(65)

وهو حينما يتحدث عن مرض أحد ممدوحيه، يُقلّل من شأن علّته تلك؛ لبث روح الأمل فيه،من خلال ما يأتي به من الحجج والبراهين التي تؤكد شفاء تلك العلة ،ومن ثم عودة الممدوح الى ما كان عليه من الصحّة والعافية،ومن تلك

الحُجج مثلاً، انّ الأسد المخيف على الرغم من هيبته وخشية الآخرين منه،فهو يمرض أيضاً ،فليس ذلك بأمر عجيب لدى الشاعر:

**فــإنْ تــكُ قــد نالَتْــك أطــرافُ وَعْكَــةٍ فــلا عَجَــبَ أنْ يُوعَــكَ الأسَــدُ الــوَرْدُ** (66)

ولكي يؤكد الشاعر أن المصائب التي يمرّ بها الانسان في أوقات مختلفة ،تجعله قادراً على معرفة المحسنين وأهل الفضل،فعندما أساء الدهر له،أدرك فضل ممدوحه عليه، من خلال وقوفه الى جانبه في محنته ، بخلاف الآخرين، لذا نراه يخرج بنتيجة احتجاجية لها علاقة كبيرة بالمضمون الذي طرحه، ألاَ وهي أن طعم الشهد لا يمكن ادراكه على حقيقته لولا معرفة طعم الحنظل،وبهذا الاحتجاج يصل الشاعر الى تأكيد فضل ممدوحه عليه:

**إســاءَةَ دَهْــرٍ أذْكَــرَتْ حُسْــنَ فعْلِــهِ إلــيَّ ولَــوْلا الشَّــرّيُ لــم يُعْــرَفِ الشَّــهْدُ**(67)

من خلال ما سبق تبيّن لنا أنّ استدلالات الشاعر كانت على علاقة متينة بطبيعة الموضوع الذي كان يتحدث عنه،ولم تخرج عن تأكيد أمور معينة تخصّ ممدوحيه كما بدا لنا من الامثلة الشعرية التي مرّ ذكرها.

ولم يختلف الحديث عن علاقة الاحتجاجات بغرض الرثاء في شعر أبي تمام ،عن الحديث عن تلك العلاقة بغرض المديح ؛لانّ النماذج الاحتجاجية التي طرحها الشاعر في رثائياته كانت ذات صلة متينة بطبيعة الغرض الذي اشرنا اليه ،وجاءت لتعبّر عن تأزّم حال الشاعر النفسية،ومن ثم مزج الرثاء بالانفعال الحقيقي،فالناس تحزن حزناً شديداً ،ويعصر الالم قلوبهم بعد دفن المرثي ؛لانهم شعروا بتاثيره فيهم حينما فقدوه ،فمثلهم في ذلك مثل مَن يعرف تأثير الشمس الفعلي بعد غروبها:

**رَاحَــتْ وُفُــودُ الأرضِ عــن قَبْــرِهِ فارِغَــةَ الأيــدِي مِــلاءَ القُلُــوبِ**

**قــد عَلِمَــتْ مــا رُزِئَــتْ إنّمــا يُعْــرَفُ فَقْــدُ الشّــمْسِ بعــدَ الغُــرُوبِ**(68)

وكما يرى الانسان الهلال في أوّل نموه،يدرك بأنّه سيصبح بدراً في يوم من الأيام،كان حال المرثيَّين اللذين رثاهما الشاعر حين توفيا في حداثة سنّهما،إذ رأى أبو تمام أنهما لو لم يموتا في صغرهما،لأصبحا من خيرة الناس،ولكان ذلك أمراً مفروغاً منه،كما في الهلال الذي لاشكّ في اكتماله منذ رؤيته في بداية تكوينه:

**لَهْفِــي علــى تلــكَ الشَّــواهِدِ فِيهمــا لَــوْ أُمْهِلَــتْ حتّــى تكــونَ شَــمائِلا**

**لَغَــدَا سُــكُونُهُما حِجــىً وصِــباهُما حِلْمــاً وتلــكَ الأريحيَّــةُ نــائِلا**

**ولَأَعْقَــبَ الــنَّجمُ المُــرِذُّ بِدِيمَــةٍ ولَعَــادَ ذاكَ الطَّــلُّ جَــوْداً وابِــلاَ**

**إنَّ الهِــلالَ إذا رأيــتَ نمُــوَّهُ أيقَنْــتَ أنْ سَــيكون بَــدْراً كــامِلا**(69)

وعندما يرثي الشاعر بني حميد،يجعلهم كالماء العذب الذي ينفد سريعاً؛لأنه مرغوب فيه،بينما يتأخّر الموت عن غيرهم؛لأنهم كالماء المليء بالأوساخ،فيطول به العمر ؛لأنه مرغوب عنه:

**إنْ يَنتَحِـــلْ حَـــدَثانُ الـــدَّهْرِ أنْفُسَـــكُمْ ويَسْلَمِ الناسُ بينَ الحَوضِ والعَطَنِ**

**فالمـــاءُ لـــيسَ عجيبـــاً أنَّ أعذَبَـــهُ يَفنـــى ويَمْتـــدُّ عُمْـــرُ الاجِـــنِ الأسِـــنِ[70]**

وبذلك تتكشف لنا الصلات المتينة بين ما يحتجّ به الشاعر من الأمثلة،وطبيعة الغرض الذي يتحدّث عنه،سواء أكان غرض المديح أم غرض الرثاء،اللذين أشرنا سابقاً الى أنهما أكثر غرضين في شعر أبي تمام وردت فيهما احتجاجاته الواقعية منطقياً وعقلياً.

وفيما عدا ذلك، فقد وردت بعض الاحتجاجات لدى أبي تمام في أغراض أُخر،إلّا أنها كانت قليلة جدّاً قياساً بالغرضين السابقين،ولكن في الوقت نفسه، تؤكد متانة الصلة بين تلك الاحتجاجات،والأغراض التي جاءت فيها كما سيتضح لنا فيما سيأتي .

ففي غرض الفخر نرى الشاعر يحتجّ بالسيف الذي إنْ طال به الأمد،يغدو غير مجدٍ من الناحية القتالية؛وذلك لإقناع عاذلته التي تلومه على كثرة ترحاله لتحقيق الثروة التي يروم الوصول اليها، وهو ما زال في عهد الشباب،قبل أنْ يدركه الزمن ويصبح غير قادر على تحقيق مراده،كالسيف الذي ينبو،ولا يحقق الغاية التي يرتجى اليها، حين يتقادم به العهد:

**دَعِينـــي علـــى أخلاقـــي الصُّـــمَّ للَّتِـــي هـــيَ الـــوَقْرُ أو سِـــرْبٌ تُـــرِنُّ نَوادِبُـــهْ**

**فـــإنّ الحُسَـــامَ الهُنْـــدُوَانيَّ إنّمـــا خُشُـــونَتُهُ مـــا لَـــمْ تُفَلِّـــلْ مضـــارِبُهْ[71]**

وممّا لاشك فيه أنّ العلاقة تبدو هنا واضحة للعيان بين حدّة السيف وقوته،وارتباط تلك الحدّة والقوة بشباب الشاعر؛ لتحقيق الهدف المنشود الذي يروم الشاعر بلوغه.

وحينما يفرز أبو تمام حكماً نابعة من تجاربه في الحياة،وتكون تلك الحكم تتضمن نسبة من الشك والارتياب من لدن المتلقين،يسعى الشاعر لاقناعهم عن طريق الاحتجاج بالأدلة التي تؤكد صدق ما يدّعيه،فمن ذلك مثلاً –وإن سبق الحديث عنه– تسليط الحسّاد بالكلام على فضيلة ما من لدن المولى العزيز(سبحانه وتعالى)،فانه يؤدي الى انتشار تلك الفضيلة بعد أنْ خَمدَ ذكرها، أو كاد، ومَثَلُ ذلك كَمَثَل النار التي تحرق عود الطيب لتبرز عطره الزكي،فلولا احاطته بتلك النار لما فاحت تلك الراحة منه،وبذلك يحقق الشاعر القناعة التامة لدى المتلقي،بل وينجح في كسب إعجابهم، بوساطة تلك المفارقة الواقعية جداً:

**وإذا أرادَ اللهُ نَشْـــــــرَ فَضِـــــــيلةٍ طُوِيَـــتْ أتـــاحَ لهـــا لِســـانَ حَسُـــودِ**

**لَـــولَا اشـــتعالُ النّـــارِ فيمـــا جـــاوَرَتْ مـــا كـــان يُعـــرَفُ طِيـــبُ عَـــرْفِ العُـــودِ[72]**

والحال نفسها تنطبق على رؤية أبي تمام التي تجد أنّ الانسان يصبح متجدداً بكثرة رحلاته وسفراته من مكان الى آخر،ودليله في دقة رؤيته هذه، هو محبة الناس للشمس؛ لأنها لا تستمر بالظهور عليهم، بل ترحل من حين الى آخر،يقول:

**وطُـول مُقـامِ المـرْءِ فـي الحَـيِّ مُخْلِـقٌ لِدِيباجَتَيْــــهِ فــــاغْتَرِبْ تَتَجــــدَّدِ**

**فــإنّي رأيــتُ الشّــمسَ زيــدتْ مَحَبَّــةً الــى النّــاسِ أن ليســتْ علــيهم بسَـرْمَدِ**(73)

ولم يتجاوز أبو تمام الاحتجاج حتّى أثناء شكواه من الشيب الذي غزا رأسه،فعلى الرغم من أن الشيب يمتاز ببياض لونه في العين،إلّا أنّه لدى الشاعر يكون أسود اللون في فكره وقلبه،ومع ذلك فهو قد سلّم أمره اليه؛ لأنه أصبح واقعاً ملموساً، وممّا لا سبيل الى التخلّص منه، وبذلك الشعور يكون كمن تميّز بأنه أجدع ورضي بذلك،لأن الأنف جزء من وجهه:

**لــهُ مَنْظَــرٌ فــي العَـينِ أبـيضٌ ناصــعٌ ولكنّـــهُ فـــي القَلْـــبِ أسْــوَدُ أســـفعُ**

**ونَحــنُ نُزَجِّيــهِ علــى الكُــرْهِ والرِّضــا وأنــفُ الفَتَــى مِــنْ وَجْهِــهِ وهْـوَ أجْـدَعُ**(74)

إن قوة العلاقة بين المعنى الأول الذي طرحه الشاعر في الشطر الأول من البيت الثاني،والمعنى الثاني الذي احتجّ به في الشطر الثاني من البيت نفسه،تكمن في أنّ المعنيين كانا متعلقين برأس الانسان، أي أنّ الشاعر لم يخرج في احتجاجه الى جهة أخرى، وإنّما جاء بذلك الاحتجاج من رأس الانسان نفسه،ليؤكد رضوخه للأمر الواقع،والقبول بما أُبْتُلِيَ به.

ولتأكيد بقاء الانسان وحنينه أبداً لحبّه الأول،نرى الشاعر يذكر ذلك في غزله،عن طريق الاحتجاج الذي يقطع فيه بحبّ الانسان لمنزله الأول الذي وَلِدَ فيه،على الرغم من تنقله من منزل الى آخر خلال رحلته في الحياة،فيقول في ذلك:

**نَقِّـلْ فُـؤادَكَ حيـثُ شِـئْتَ مِـنَ الهَـوَى مــــا الحُـــبُّ إلّا لِلحَبيـــبِ الأوّلِ**

**كَــمْ مَنــزِلٍ فـــي الأرْضِ يألفُـــهُ الفَتَـــى وحَنـــينُهُ أبـــداً لأَوّلِ مَنْـــزِلِ**(75)

وفي بعض الأحيان كان أبو تمام يطرح من خلال شعره قيماً تربوية، معرّضاً ببعض ممدوحيه السابقين، فيرى أنّ الانسان يكون عزيزاً دائماً ومحترماً في المجتمع الذي يعيش فيه،طالما اتصف بالحياء،ودليله في ذلك . على الرغم من أنّ هذا الكلام لا يحتاج الى دليل . بقاء العود مع بقاء اللحاء عليه،في دلالة تشبيهية للإنسان بالعود،وللحياء باللّحاء،قائلاً:

**يَعِيشُ المــرءُ مــا اســتحيى بخيــرٍ ويَبْقَــى العُـودُ مـا بَقِـيَ اللِّحَـاءُ**(76)

وتحمل بعض احتجاجات الشاعر دلالة العتاب للممدوح،ويكون الاحتجاج على صلة متينة أيضاً بطبيعة الغرض،فالممدوح حين يحجب الجائزة عن الشاعر، لا يجعله يائساً من اطلاقها؛ فالسّماء حين تحتجب، يتوقّع الناس منها الجود بالماء بعد ذلك الاحتجاب،ومن هنا تتّضح قوّة العلاقة بين المعنيين:

**يـــا أيُّهـــا المَلِـــكُ النَّـــائي برُؤيتـــهِ وجُـــودُه لمرجِّـــي جُـــودِهِ كَثِـــبُ**

**لـيسَ الحِجـابُ بِمُقْـصٍ عنـكَ لـي أمـلاً إنّ السّــماءَ تُرَجَّــى حِـينَ تَحتجــبُ** (77)

وانتهاء الحديث عن دلالة العتاب في شعر أبي تمام الاحتجاجي،ينتهي كلامنا على علاقة الاحتجاج بالغرض الذي يردفيه، ولم يبق لنا سوى الحديث عن المواقع التي وردت فيها احتجاجات الشاعر.

**مواقع الاحتجاج:**

لم تأتِ احتجاجات أبي تمام كلّها في موقع واحد لا يتغير، بل كانت تختلف في أماكن ورودها من حين الى آخر،ولغرض عدم تكرار النصوص الشعرية السابقة،سنفصل الحديث عن مواقع تلك الاحتجاجات،ونكتفي بالاحالة لأماكن ورودها في ديوان الشاعر،وكما يأتي:

1. ورود الاحتجاج في الشطر الثاني من البيت نفسه،إذ شكل هذا التمثيل القِدح المعلّى في احتجاجات الشاعر[78]،فضلاً عن أنّه بدا اكثر قوّة وجمالاً عن الاحتجاجات الأُخر التي وردت في مواقع مختلفة،وأكثر تأثيراً في نفوس المتلقين؛بسبب السرعة الفائقة في تأكيد المعنى الأول الذي ورد في شطر البيت الاول، وعدم ترك المتلقي في حيرة من أمره مدة اطول لإدراك الدليل على نفي الشّكّ الذي تولّد لديه في شطر البيت الأول.
2. يأتي المعنى الأول الذي يحتاج الى دليل منطقي لتصديقه في بيت كامل،ثم يأتي الاحتجاج في البيت الثاني مباشرة بشطريه معاً [79] ،إذ وردت هذه الطريقة في الاحتجاج بشكل أقلّ ممّا عليه في الطريقة السابقة ،وهي طريقة لا تقلّ جمالاً عن سابقتها،إلا في مسألة الوقت الذي يطول قليلاً في ذهن المتلقي لسماع الدليل القاطع، الذي يؤكد صحّة ادعاء الشاعر ومصداقيته في معناه الأول الذي أورده في البيت الأول .
3. أمّا الموقع الثالث من مواقع ورود الاحتجاج،فكان الشطر الثاني من البيت الثاني[80]،أي أن الاحتجاج في هذه الحال لا يأتي في البيت الثاني كله كما في الطريقة السابقة،بل في شطره الثاني فقط،ولعلّ في ذلك بيان لمقدرة الشاعر على الاقناع، لأنه هنا يأتي بمعنى يحتاج الى دليل قوي لتصديقه،وهذا المعنى يأتي في ثلاثة أشطر متتالية،في الوقت الذي يأتي فيه بالدليل في الشطر الثاني من البيت الثاني فقط،ممّا يؤكد مقدرته العالية في الاقناع، وإزالة الشّكّ من النفوس بنصف بيت فحسب،علماً أنّ هذه الطريقة أقل وروداً في شعر الشاعر من الطريقتين السابقتين.
4. وهناك طريقة أخرى لورود الاحتجاجات في شعر أبي تمام ،تدلّ على اهتمامه بهذه الظاهرة التي تحتوي ضمناً المفارقة الطريفة ،ألاَ وهي اعتماده الاحتجاج في بيتين او اكثر من القصيدة نفسها، عن طريق اعطاء المعنى في شطر واحد،ثم التمثيل بالدليل في الشطر الثاني ، ويتبع الاسلوب هذا في اكثر من مرّة على مدى القصيدة الواحدة،[81] وكما قلنا فإنّ ذلك يدلّ على اهتمام الشاعر بظاهرة الاحتجاج في شعره،وعلى ولعه بالاتيان بالأدلة المنطقية والعقلية في انتاجه الفكري والعاطفي على حدٍّ سواء.

5- وفي حالة نادرة جاء موقع الاحتجاج في شعر الشاعر في بيت كامل،بعد ورود أبيات عدّة تحتاج الى تأكيد زعم الشاعر [82]،والطريقة هذه تترك المتلقي منتظراً مدّة أطول من السابق لمعرفة الدليل على ما يدّعيه الشاعر.

إذن،كانت تلك مواقع ورود الاحتجاجات في شعر أبي تمام،والتي أكّد من خلالها موهبته الفنية كعادته،ومقدرته في اثبات تمكّنه في أكثر القضايا الفنية والبلاغية،وغير ذلك من الأمور التي دلّت على عبقرية هذا الشاعر العباسي الفذ.

ممّا سبق تبين لنا أنّ الاحتجاج ظاهرة شعرية جاءت لإزالة الالتباس والشّكّ من نفوس المتلقين حول المعاني الأُول التي أوردها أبو تمام في شعره،من خلال الأدلة الواقعية والمنطقية والعقلية التي تثبت صدق الشاعر فيما طرحه من المعاني،فضلاً عن أنّ الاحتجاج دَلَّ على أصالة الصور الشعرية لديه،كما دلَّ على مقدرة الشاعر،وتمكّنه من أدواته الفنية.

وفيما عدا ذلك كلّه،وجدنا علاقة جذرية بين الدليل الذي يأتي به الشاعر لتأكيد قوله،وغرض القصيدة التي ورد فيها ذلك الاحتجاج ،سواء أكان مديحاً أم رثاء أم غير ذلك ،فضلاً عن النتائج المهمة التي توصلنا لها فيما يتعلق بمواقع الاحتجاجات ،والتي لا أجد مسوّغاً يدعوني الى تكرارها في هذا المقام.

**الهوامش**

1.ينظر:اللسان/مادة حجَّ.

2. ينظر: المعجم الوسيط/مادة حجَّ.

3البقرة/.258

4. آل عمران/.20

5. نفسها/61.

6. نفسها/.66

7الأنعام/.80

8. كتاب الصناعتين/.470

9. م.ن/ .470

10سرّ الفصاحة/.267

11. ينظر: م.ن /267،والبيت في: سقط الزند/.56

12. ينظر البلاغة والتطبيق/.308

13. أسرار البلاغة/110.109،والبيت في :شرح ديوان المتنبي3/.151

14. ديوان أبي تمام 2/.23

15. الايضاح في علوم البلاغة/.121

16 . م.ن/.122

17. ينظر:م.ن/133،والبيت في شرح ديوان المتنبي3/.151

18. ينظر:العصر العباسي الأول/.278

19. ينظر:البلاغة والتطبيق/.308

20. البلاغة الواضحة/45.

21. البلاغة والتطبيق/.309

22. م.ن .309

23. م.ن /309.

24. م.ن /309.

25. م.ن/.309

26. جواهر البلاغة/266،والبيت الأول في شرح ديوان المتنبي4/.191

27. جواهر البلاغة/274،والبيت في :شرح ديوان المتنبي4/.217

28. ينظر:علوم البلاغة/227.226/234..235

29. ينظر:كتاب الصناعتين/.470

30. ينظر:العصر العباسي الأول/.278

31ينظر:سرّ الفصاحة/.267

32. ينظر: أسرار البلاغة/ .110

33. البلاغة والتطبيق/.309

34. م.ن /.309
35. ينظر :الايضاح في علوم البلاغة/.122
36. ينظر :جواهر البلاغة/267.266،وينظر :علوم البلاغة/.227
37. ديوان ابن الرومي6/.2397
38. ينظر :علوم البلاغة/.227
39. ينظر:الأدب العربي في العصر العباسي/.76
40. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده 1/.133
41. ينظر :العصر العباسي الأول/.278
42. ديوانه 102/1،تُقطب:تُمزَج.
43. م.ن 77./3
44. م.ن 140..139/4
45. م.ن 446./4
46. م.ن 397./1
47. م. ن 157./2
48. م.ن 189./3
49. م.ن 151./1
50. م.ن99./2
51. م.ن128./4
52. م.ن84/2،الشري :الحنظل.
53. م.ن128./4
54. م.ن 297./4
55. م.ن23/2،الديباجتان:الخدّان ،يريد:أنّه مُخلِقُ الثياب،وأراد بالديباجتين :ما يظهر من أمره.
56. م.ن 54./3
57. م.ن 47./3
58. م.ن 115.114/4،يُقال :أرذَّ السحابُ :إذا أتى بالرّذاذ وهو فوق الطّلّ.
59. م.ن 111./1
60م.ن 220/1،الوفر :المال،تُرِنُّ:تندب.
61. م.ن 54/3،ينآد :يُعوَج
62. م.ن317./1
63. م.ن 102./3
64. م.ن 151./1
65. ينظر مثل ذلك:م.ن1 /111 ،3/2،157./317،189
66- م.ن 99/2، وينظر: 54./3
67. م.ن84./2

68. م.ن4/47.
69. م.ن 4/115.114،وينظر مثل ذلك:4/128.
70. م.ن 4/139..140
71. م.ن 1/220.
72. م .ن 1/397.
73. م.ن/23.
74. م.ن2/324،نُزَجِّيه:نحمله ونَسُوقه على أنْ يسير .
75. م.ن4/253.
76. م.ن 4/297.
77. م.ن 3/ 446.
78. ينظر :م.ن 2/1،151،111،102/3،157،99،84/4،317،189،77/297.
79. ينظر :م.ن 1/397،220، 2/4،139/23..253،140
80. ينظر : م.ن2/4،324/446.،47
81. ينظر : م.ن3/4،54/128.
82. ينظر :م.ن 4/115.114.

**المصادر والمراجع**


. القرآن الكريم،أشرف المصادر وأكرمها.

. الأدب العربي في العصر العباسي،د.ناظم رشيد،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي،جامعة الموصل ،نشر وطبع وتوزيع :مديرية دار الكتب للطباعة والنشر،الموصل . الجمهورية العراقية،1410هـ1989 م.

. أسرار البلاغة ،عبد القاهر الجرجاني،تحقيق :ريتر،استانبول،1954 م .

. الايضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ،مختصر تلخيص المفتاح،الخطيب القزويني،مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر بمصر ،1384 هـ .1964م.

. البلاغة الواضحة،علي الجارم،ومصطفى أمين ،ط 10،القاهرة،1370 هـ .1951م.

. البلاغة والتطبيق ،د.أحمد مطلوب ،و د.كامل حسن البصير ،مطبعة دار الحكمة. بغداد ،ط 2،1410 هـ .1990 م.

ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،السيد المرحوم أحمد الهاشمي ،اعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى ببغداد،الطبعة الثانية عشرة المعدّلة مطولة منقحة وفيها زيادة تطبيقات كثيرة ،مطبعة السعادة بمصر ،1379 هـ .1960 م.

ـ ديوان ابن الرومي ،أبي الحسن علي بن العباس بن جريح،تحقيق: د.حسين نصّار ،طبعة ثالثة منقّحة،الجزء السادس،مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ،شارك في تحقيق هذا الجزء،وفاء محمود الأعصر،سيدة حامد عبد العال ،منير محمد علي المدني،1424 هـ .2003 م.

. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي،تحقيق: محمد عبده عزام،دار المعارف ،القاهرة . مصر،م 1964،1 ،م1969،2 ،م1970،3 ،م4 ،1965.

ـ سر الفصاحة ،للأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى سنة 466 هـ ،شرح وتصحيح :عبد المتعال الصعيدي،مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر ،1389 هـ .1969 م.

. سقط الزند ،أبو العلاء المعري،شرحه:أحمد شمس الدين ،دار الكتب العلمية ،بيروت . لبنان،ط2،1428 هـ . 2007 م.

ـ شرح ديوان المتنبي،وضعه:عبد الرحمن البرقوقي،الناشر:دار الكتاب العربي ،بيروت . لبنان،1357،هـ .1938 م [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية ].

. العصر العباسي الأول ،د.شوقي ضيف ،القاهرة ،ط5،1966 م[تاريخ المقدمة].

. علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع،أحمد مصطفى المراغي،دار الكتب العلمية،بيروت . لبنان،ط4،1422 هـ . 2002 م.

ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،تأليف: أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الازدي،حققه وفصّله وعلّق حواشيه :محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة،بيروت . لبنان ،ط4،1972.

. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر،تصنيف :أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري،حققه وضبط نصّه :الدكتور مفيد قميحة ،دار الكتب العلمية ،بيروت . لبنان ،ط2،1409هـ . 1989 م.

ـ لسان العرب ،للعلامة ابن منظور ،معجم لغوي علمي،قدّم له :العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي،اعداد وتصنيف :يوسف خياط ،نديم مرعشلي،دار لسان العرب ،بيروت . لبنان ،د.ت.

ـ المعجم الوسيط،قام بإخراجه :ابراهيم مصطفى ،أحمد حسن الزيات،حامد عبد القادر،محمد علي النجار،وأشرف على طبعه:عبد السلام هارون ،المكتبة العلمية ،طهران،د.ت.